الأسرة في الرواية الجزائرية – رواية بوابة الذكريات لآسيا جبار أنموذجا–

The Family in the Algerian Novel - The Gate of Memories Novel by Assia Djebar as a Model -

العويلي راشد[1]*، عبد الحليم محمد[2]

1 جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، الجزائر، aouilirachid@gmail.com

2 جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس، الجزائر، Obbada.2011@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/09/01 تاريخ القبول: 2024/01/16 تاريخ النشر: 2024/01/26

ملخص: كثيرا ما نجد خوض الرواية الجزائرية السابقة منها واللاحقة في المواضيع الاجتماعية، ومن غير شك أنها تتضمن تفاصيل خاصة بالأسرة والمجتمع، تحاول تصوير أحداث الواقع الجزائري، ونقله للقارئ، وتحليله وطرح تصورات حول قضياه، نقدا وتفسيرا، ومحاولة تعرية الواقع الأسري من العمق وبعمق، من خلال توظيف شخوص تحاكي الواقع، بل ويتقاسم الجزائري مع أفراد شخوص الرواية الكثير من أحداث حياته، همومه وتطلعاته. سنحاول من خلال هذا الطرح تحليل ما ضمته الرواية الجزائرية بين متونها بلغة الوصف والحكي والتحليل رغبة في الحديث عن الأسرة الجزائرية، وأيضا من أجل إماطة الأذى عن المرأة، و منحها المكان الذي فقدته، والحق في الاختيار في أي صفة كانت بنتا أو زوجة، أو أما، ومنح مساحة أكبر للمرأة الجزائرية داخل هذا المجتمع الذي طالما وصف في الروايات الجزائرية بالمجتمع المغلق، الذي لا يسمح للمرأة بالانفتاح.

كلمات مفتاحية: الرواية الجزائرية، الأسرة، المرأة الجزائرية، الواقع الاجتماعي.

Abstract: The Algerian novel tackles social issues, including family dynamics, gender roles, and the constraints faced by Algerian women, It seeks to portray and analyze Algerian reality, challenge prevailing norms, and give voice to women. The novel aims to empower women by exposing hidden truths and advocating for their rights within Algerian society ; Through this proposition, we will try to analyze what the Algerian novel contained between its contents in the language of narration and analysis in order to talk about the Algerian family, and also in order to remove harm from women, and give them the place they lost, and the right to choose in any capacity within this society.

Keywords: The Algerian novel, the family, the Algerian woman, the social reality.

---

* **المؤلف المرسل**

1. مقدمة:

لطالما مثّل المجتمع الجزائري مصدر وحي للرواية الجزائرية، برصيد الجزائر الثقافي وتقاليدها العميقة الضاربة في الجذور العربية والإسلامية، وخوض الروائي في القضايا الاجتماعية هو بمثابة عملية نقل وتصوير ومحاكاة، ولذلك نجد الكثير من الأعمال الروائية ترجمت إلى أعمال سينمائية، والهدف من وراء ذلك ليس الكتابة وحدها، والرغبة في البوح فقط، وإن كان ذلك من أسبابها، فالروائي يكتب أيضا رغبة في الوصف، رغبة في التفسير، وأيضا من أجل طرح الرُؤى ومعالجة القضايا التي يعيشها المجتمع الجزائري، تعيشها الأسرة، ومن خلال ذلك نجد الروائية آسيا جبار بأعمالها الروائية الجميلة والتي سنحاول قراءة إحداها وهي رواية "بوابة الذكريات" المترجمة إلى اللغة العربية، والتي عنوانها في الأصل قبل الترجمة باللغة الفرنسية« nulle part dans la maison de mon père » "لا مكان لي في منزل أبي" حاولت من خلالها جبار طرح قضايا تخص المجتمع الجزائري، تخص الأسرة الجزائرية وتقاليدها، حاولت أيضا وبقوة وصف ما تعيشه المرأة الجزائرية من إكراهات داخل هذا المجتمع حسب رؤيتها، أرادت من خلالها البوح والكشف عمّا تعانيه المرأة الجزائرية.

فما هو واقع الأسرة في الرواية الجزائرية؟ وما هي رؤية جبار للواقع الأسري الجزائري؟ أيضا كيف فسرت جبار شكل هذه العلاقات الأسرية؟ وما نظرتها لعلاقة ما تعيشه الأنثى الجزائرية بالأعراف؟ ثم كيف بنت جبار هذه الاقتناعات؟

حاولنا من خلال هذا الطرح، واعتمادا على المنهج الوصفي والتحليلي الوصول إلى واقع الأسرة الجزائرية من خلال العمل الروائي، أيضا معرفة وضع المرأة الجزائرية داخل الأسرة، ثم معرفة الأنثى التي تبحث عنها آسيا جبار، ومن أي النماذج غرفت جبار، ومن أي المشارب ارتوت وغذت فكرها.

2. الأسرة في الرواية الجزائرية:

لقد اهتمت الرواية الجزائرية بالأسرة، وأولتها اهتماما كبيرا منذ نشأتها بشكلها المعاصر، خاصة بعد الاستقلال، وذلك رغبة من الروائيين الجزائريين بمعالجة بعض القضايا التي تخص الأسرة، تخص المرأة، تخص الحياة في الريف والمدينة، تحكي بساطة هذا المجتمع المنهك، وتحكي عن بعض آلامه وأحلامه، تصف واقعا أصبح فيه الحصول على بعض الحقوق أحلاما، أسر جزائرية ظنت أن بعد زوال عسر الاستعمار يسرا، فزال الاستعمار وبقي عسره و تضافر.

1.2 قراءة في متن (ريح الجنوب) لعبد الحميد بن هدوقة:

بقراءة بسيطة لمتن رواية ريح الجنوب لعميد الروائيين الجزائريين عبد الحميد بن هدوقة– رحمه الله– تجده يعالج موضوع الأسرة الجزائرية، يتحدث عن المرأة الماكثة في البيت، عن تزويج الفتاة دون إذنها، عن تعليم البنات، عن ذهنية المجتمع الذي يكرس السلطة الذكورية، يصور ذلك من خلال شخوص الرواية والتي جعل في شخصية الفتاة نفيسة نموذجا للبنت الجزائرية التي تعاني من القهر ومن السلطة الذكورية المتعسفة، ثم يحاول الروائي طرح عواقب هذا التعسف الذي يخلق أزمات اجتماعية لا يحمد عقباها، وكأنه بذلك يبعث برسالة للمتلقي حتى نتفادى عواقب حرمان الأنثى من حقها في الاختيار، خاصة في مسألة الزواج و العلاقة بالرجل حيث كانت المرأة إلى عهد قريب في الجزائر تزوج بغير إذنها أو اختيارها، بل ولا ترى الزوج إلا يوم الزفاف.

يطرح بن هدوقة تساؤلات على لسان نفيسة تمثل الأنثى الجزائرية في هذا الماضي القريب، هي من واقع الأسرة الجزائرية، تمثل السلطة الذكورية، وهي الحرمان من الاختيار، من الحرية من الحياة:"... أين هو المستقبل؟ أبي هو مالك مستقبلي، أبي الذي أعطاني

الحياة، أبي مالك حياتي أولا وأخيرا، حتى الدموع لا يصلح أن تسيل على حياة ليست لي، أبي يملك حياتي وحياة أمي، حياة المرأة ملك للرجل...أبي يمنعني من مواصلة دراستي بحجة أن سني تقتضي الزواج لا الدراسة، وأنه يرغمني على الزواج بمن أراد هو لا لسبب إلا لأنه صاحب الحق الأول في حياتي كما لو أنها قطعة من أرضه أو بضاعة".[1]

يصف بن هدوقة ما حاولت نفيسة القيام به بعد شعورها بالقهر والإجبار كردة فعل عنيفة:"... ولكن لا سبيل لديّ إلا الفرار، وهو الاختيار الوحيد الممكن، لا لن أتراجع، يجب أن أنفذ ما قررت مهما كانت العاقبة، الموت أفضل من حياة أقضيها في الكآبة والندم...غدا أغادر هذا الجحيم الذي أنا فيه نهائيا وليكن ما يكون".[2]

يضع الروائي أمام المتلقي أحداثا يراها في المجتمع، ويتقاسم معها بعض الجزئيات، وكأن الراوي يحاول التوجيه إلى توخي الحذر، لأن ردة فعل الأنثى تحت وطأة القهر لا يحمد عقباها، وحتى نحافظ على الروابط الأسرية، علينا أن نمنح المرأة حقها في الاختيار في جميع الحالات التي تخصها، وذلك بمبدأ السعيد من وعظ بغيره.

2.2 قراءة في متن (مزاج مراهقة) لفضيلة فاروق:

لقد عبرت الروائية فضيلة فاروق من خلال روايتها هذه عن صوت الأنثى بكل حرية وبكل جرأة، وحاولت تعرية الواقع، وتحدي عتبة الصمت، وفضح المسكوت عنه، تحدثت عن حرية المرأة في اختيار الشريك، عن كيان المرأة، عن أن جسدها ملكها لوحدها، ولا يحق لأي كان الحديث عنه، أو التحكم فيه، وأفكار أخرى طرحتها الروائية، باعتبارها لسان أنثوي يعيش الواقع، ويشعر بالحال، لأنه يتقاسم الكثير من أحداثه، حاولت الراوية وصف ما تعانيه الفتاة داخل الأسرة الجزائرية من إقصاء و رقابة صارمة على أفعالها، والحد من طموحها وتحجيم مكانتها، وتجريم علاقتها مع الرجل دون المرور بالمؤسسة العرفية، تحكي أيضا عن

مسألة فرض الحجاب، وأيضا عدم تمكين الأنثى من الدراسة، كما تصف السلطة الذكورية التي يمارسها المحيط العائلي على الفتاة، بل إنها تصف حجم المعاناة في أن يكون الفرد امرأة في الجزائر:"... "حين نجحت في شهادة البكالوريا وفاجأنا والدي باتصال من فرنسا مقر إقامته وعمله، قال: ترتدي الحجاب وتذهب إلى الجامعة، وفيما بعد عرفت أن رجال العائلة عارضوا التحاقي بالجامعة، وأن والدي حاول إيجاد حل وسط لإرضاء جميع الأطراف...فقد كنا فريسة لسلطة الأعمام والأقارب والجيران...ما أتعس أن يكون الفرد امرأة عندنا ! فكل طموحاته تتوقف عند عتبة تاء التأنيث".[3]

كما تصف الراوية شكل العلاقة بين البنت وأبيها، والتي تتميز بالقسوة ولا مبالاة، وعدم الاهتمام بما تفكر فيه أو تريده:"... يصعب علينا أن نفتح حديثا معه، نجهل تماما كيف تحدث الفتيات آباءهن عن أخبارهن...كل ما نحتاج إليه نطلبه من والدتي".[4]

ثم تطرح الراوية مسألة أخرى تتعلق بالأنثى وهي إجبارها على ارتداء الحجاب في الجزائر– والذي هو من تعاليم ديننا الإسلامي– وترى أن المسألة محل اختيار لا إجبار، فهي ترفضه وتراه يكرس الاختلاف بين المرأة والرجل:"... "تفاجأت حين اقتحم حياتي فجأة، ترتدي الحجاب...كيف أرتديه؟...أذهب إلى الجامعة بجلباب ومنديل مثل جدتي؟ من هنا بدأت أسئلتي، انطلقت من قطعة القماش تلك التي لم تعد تعني لي فقط التنكر الذي يوهم الأعمام أنني سأحمل سجني معي إلى الجامعة، بل صارت تعني لي إثبات مزيد من الفروق بيني وبين الآخر".[5]

فالراوية تحاول الدفاع عن كيان المرأة بنتا كانت أو زوجة أو أما، تحاول إلغاء الفوارق بينها وبين الرجل في حرية الاختيار، تطمح إلى المساواة التامة في كل الحقوق، ترفض كل أشكال الأعراف والتقاليد التي تكرس السلطة الذكورية، وتحرم المرأة من حريتها.

3. الأسرة في رواية (بوابة الذكريات) لآسيا جبار:

الروائية آسيا جبار لا تختلف كثيرا عن فضيلة فروق في الطرح الروائي الذي يدافع عن المرأة و عن منحها الحرية التامة كطرف فاعل لا تابع داخل المجتمع الجزائري، الذي دائما ما تصفه جبار بالمجتمع المغلق الذي لا يسمح بانفتاح المرأة، والقارئ لأعمال آسيا جبار لطالما يلتقي مع الأسرة الجزائرية داخل هذه المتون الروائية، تحكي عن تفاصيل تخص الحياة الاجتماعية في الجزائر، تصف المحلية الجزائرية، تصف المجتمع الجزائري من الداخل، تصف المدن الجزائرية، تحكي عن شكل الحياة داخل الجزائر، عن التقاليد، عن الأعراف، عن العلاقة بين المرأة والرجل؛ حيث حكت جبار عن بعض محطات حياتها، عن الطفولة والمراهقة خاصة والتي تميزت بأحداث فارقة في حياتها، جعلت منها لسان بوح وقلم حكي عن واقع الأسرة الجزائرية، عن وضع الأنثى داخل هذه الأسرة، حاولت أيضا طرح أسئلة وجودية تتعلق بالذات الأنثوية، تكلمت مطولا عن الشعور بالاغتراب وفقدان الانتماء.

1.3 البعد الداخلي:

حاولت جبار أن تنقل شكل الحياة داخل الأسرة الجزائرية انطلاقا من أسرتها المصغرة، وذلك من خلال عملية الاسترجاع لذكرياتها، وصفت شكل المنزل وأثاثه، تحدثت عن طفولتها وعناية الوالدين بها، حكت عن شكل العلاقة بين أمها وأبيها والتي تميزت بالود والاحترام، وأيضا بالخضوع بالنسبة للأم والطاعة لزوجها، وصفت التزام أمها بارتداء الحايك عندما كانوا يقطنون بالقرية، خلال خروجها من المنزل إلى زيارة الأقارب أو الذهاب إلى حمام القرية، والذي يعد من صميم الثقافة الجزائرية، بل و ما تزال بعض الأسر الجزائرية ترتاده إلى اليوم وبالشكل المتعارف عليه قديما: "...أنا ابنتها أمدّ لها اليد في بهو الطابق

الأرضي...إنّ كل امرأة شابة ملفوفة تماما في حايك من الساتان الأبيض بحاجة إلى طفل كي تزور قريبا...تتدثر أمي ببطء بحايك ناصع ذي أهداب من حرير وصوف"[6].

كما وصفت جبار زميلات لها أجبرن على ارتدائه وهن يدرسن في الإعدادية حتى يسمح لهن بمواصلة الدراسة، وإن كان في الحقيقة حسب رؤية جبار هو من باب الإكراه الذي يمارس على المرأة من قبل الأب الذي يستمد سلطته الذكورية من التقاليد والأعراف، وصفت جبار ذلك من خلال متنها الروائي:"... :" في الداخلية بالكاد نتخلص نحن البنات أو شبه المراهقات من الوشاح والحايك وكل هذا القناع"[7].

لقد وصفت جبار الحايك بأشنع الصفات من قناع، وتعسف، إلى ضريبة مجحفة في حق المرأة:"... " هذا القناع الشبحي كان يبدو بمثابة ضريبة غامضة يجب دفعها"[8].

والسلطة التشريعية في ذلك هي المجتمع والأعراف، والسلطة التنفيذية هي الأب الذي وصفته جبار بحارس الحريم:"...ودور الأب؟ إنه يتبدى في هذا الدور تحديدا...رغما عنه أو دون علمه حارس الحريم"[9].

تصف جبار حادثة وقعت معها في الصغر تصور من خلالها مشهدا كان له كبير الأثر على حياتها، في نظرتها إلى الرجل عموما حتى ولو كان الأب الذي تحترمه وتعترف له بالفضل، وهي حادثة الدراجة، والتي نهاها فيها عن ركوب الدراجة بمعية ابن الجيران، لأن ساقيها تكشفتا، وجعلت جبار من الحادثة قضية أسرية، أكدت جبار على رفضها التام لتحكم الرجل في جسد المرأة مهما كانت صفته: أبا، أخا أو زوجا، لأنّ جسدها ملكها لوحدها: " ما شد انتباهي أكثر في الجملة تلك الكلمة العربية ساقيها وقد انزعجت أيما انزعاج لما استشعرت بأنه حدد شخصي ونزع مني شيئا لم يكن ملكه...لقد فصلهما عن جسدي، أدركت أن ما بدر منه عبارة عن شتم ولكن لماذا؟"[10].

وكأن جبار أرادت من توظيف لغة الجسد: الرمز للحرية المطلقة، لكينونة المرأة، للوجود، لإثبات الذات: "ترفض المرأة الكاتبة أن تكون إضافة هامشية وتمثيلا جنسيا، فالجسد ليس تيمة عضوية موضوعا، إنما هو هويتها وذاتها... إنّ المرأة حسب الكاتبة (آسيا جبار) هي صاحبة هذا الجسد، وهذه اللغة –لغة الجسد– هي الأقدر على التلاعب بحروف الجنون الأنثوي"[11].

تتحدث جبار أيضا عن شكل العلاقة بين أبيها وأمها التي تميزت بالهدوء والاحترام المتبادل، وخضوعها له، تصف مشهدا لأبيها يظهر شكل العلاقة التي كانت تجمعه بزوجته، والتي لطالما كان الجزائري عموما يخفيها ولا يتجرأ على البوح بها خجلا وعملا بالأعراف:"...نظرت إليه، قد يكون استشعر الريبة أو الخجل المفاجئ لأنه لم يتمالك نفسه، إظهاره الحنان لزوجته ولوجعه الشخصي الذي ضاعفه وجع أمي"[12].

تفسر جبار سبب عدم الإفصاح بين الزوجين بالحب، وأن المواقف الصعبة كافية لفضح هذه الأحاسيس:"...وقد تفاجأ هو نفسه لما أبداه من حب للزوجة، هو الذي اعتاد على خنق أي إحساس جراء الأعراف التقليدية"[13].

إذن فمسألة الحب بين الأبوين قائمة، وإن أخفاها كلامها ولم يتجرآ على البوح بها، بَيْد أنّ المواقف والشدائد تفضحها، وأيضا الخوف على الآخر، ودليل ذلك أيضا متانة هذه العلاقات، والتي كان ينذر معها حالات الطلاق بخلاف أيامنا هذه، التي يُفْصَح فيها بالحب علنا وأمام الملأ، لكن تنتهي العلاقة عند أول خلاف، والذي يكون تافها في الغالب.

ومثال ذلك الراوية نفسها عندما تسرد علاقتها بمن تعرفت عليه أيام ثانوية، والذي أسمته في روايتها طارق، فقد وصفت علاقتها به، والبوح بالحب الذي جرى بينهما، وبعثه لها رسائل يعبر فيها عن حبّه، من خلال قصائد لامرئ القيس مكتوبة باللغتين العربية

والفرنسية، وفسرت إقدامها على هذه العلاقة، التي اعتبرتها متنفسا لها، بَيْد أنها لم تخف مخاوفها من اكتشاف أبيها لهذه العلاقة التي ستكلفها غاليا، لأنها اعتبرت نفسها أنهّا وقعت عهدا غير مكتوب مع أبيها بأنها لن تخالف العادات، وأن تحافظ على المسافة اللازمة بينها وبين الشبان إلى غاية الزواج، وكانت في كل مرة تلوم نفسها تلوم معها التقاليد التي فرضت مثل هذه العهود على الأنثى، تصف شعورها عندما أقدمت على سلوك خاطئ في نظر أبيها ومجتمعها:"...كان الندم على جوابي على مجهول يؤرقني، كانت خطواتي الأولى في مجال المحظور تولد في سيناريوهات مخيفة"[14].

تحدثت الراوية عن سن المراهقة الذي يجعل الأنثى تكتشف الآخر، مع ضرورة المحافظة على الفارق المسافة الذي حددته الأعراف، بينت الراوية صعوبة الموقف، وكيف كانت تداري تصرفاتها:"...لكن ما إن أصبحت مراهقة، ستواصل البحث عن ارتياد الفضاء الحرّ، والتحول وتوسيع الأفق، حينئذ لم يتسن لها القيام بذلك إلا بعيدا عن أنظار الأب، أتخشى حكمه؟ لا بل بالأحرى الشكوك التي قد تعتريه حول نزاهتها وعذريتها"[15].

لم تخف جبار خوفها من أن يعلم أبوها بمغامرتها الغرامية، بل وكررت لازمة خلال متنها الروائي وهي أنها ستقدم على الانتحار إن علم أبوها بالخبر:"...وحتى في هذا الخطر، لطالما رددت هذه اللازمة المأساوية: إن علم أبي بذلك سأنتحر، هذا التهويل رمز للخرق"[16].

وإن كانت في الحقيقة ترفض هذا الشعور، ترفض وخز الضمير وحضوره، تعتبر نفسها ضحية لأعراف متشددة:"...الأب ضحية جهله المتشدد وأحكام جماعته المسبقة"[17]؛ وحتى جبار التي كانت متمردة في كتاباتها، في نظرتها للواقع الجزائري، في رفضها العلني للتقاليد الجزائرية التي تحدّ من دور المرأة، وتقيد سلوكاتها، رغبة منها في تحرير الذات الأنثوية، فقد أنهت علاقتها الغرامية بسبب أمر ذكوري حسبها. ووصفت حياتها الزوجية

بالجمود:"...المرأة التي تكتب تزعم أنها نادمة على إحدى وعشرين سنة من جمود قصة الحب الحقيقية المزعومة التي تلت"[18].

لقد وصفت جبار جانبا مهما أيضا من الحياة الأسرية واختلافها بين المدينة والقرية، وقد جعلت أمها نموذجا حيا أمام القارئ، حيث كانت أمها تلف نفسها بالحايك عند الخروج من المنزل أثناء إقامة العائلة بالقرية، ثم تخلت عنه عند انتقال العائلة للعيش بالمدينة، وذلك طبعا بعد موافقة الأب الذي اعتبرته الراوية مثقفا، فقد جعل عائلته تخضع للتقاليد الجزائرية في القرية لا اقتناعا ولكن خوفا من المؤسسة الاجتماعية، بينما سمح لزوجه وابنته بالتبرج ومخالفة الأعراف عند ابتعاد العائلة عن القرية، لابتعاده عن معارفه، ودائرة اللوم التي تراقب السلوك، وتحافظ على الأعراف والتقاليد الجزائرية:"...فجأة أدركت مدى تطوره: هاهو يقبل أن أختلف على قسم مختلط حيث يتجاور الفتيان والفتيات"[19].

اعتبرت الراوية ما حدث لأسرتها بالعاصمة بمثابة ثورة"إن مصطلح الثورة الصغيرة هذا الذي أخذت أطبقه عند وصولنا إلى العاصمة...مصدره تفصيل بعينه: أمي...تحولت في بضعة أشهر إلى غربية ذات أناقة خفية، دائما معتنية بهندامها وشعرها...وهكذا تم نهائيا طي الحايك الجميل الحريري الذي كان يخفيها في السابق بالقرية عن أنظار الجميع"[20].

من خلال المشاهد التي عرضتها الراوية عن تغير حال الأسرة عند إقامتها في العاصمة نستنتج مدى تأثير سلطة الأعراف على الأسرة، على الالتزام بالقيم التي تحددها التقاليد، ولو بدون اقتناع، لأن الأب كما وصفته جبار كان يخشى اللوم، وعدم القبول، فقرر التكيف مع الواقع العرفي، بينما خالف العرف السائد في الجزائر في تلك الفترة، لزوال رقابة الأعراف الصارمة التي يحرص على تنفيذها المعارف والأقربون.

2.3 البعد الخارجي:

في الحقيقة سمينا هذا الجزء من المقال بالبعد الخارجي محاولة لقراءة رأي ورؤية جبار حول الأسرة الجزائرية، نظرتها لما ينبغي أن تكون عليه الأنثى الجزائرية، رفضها للأعراف والتقاليد التي تحجم دور المرأة في المجتمع، أو تجعلها تابعة في شخصها للرجل، حاولنا أن نفسر كيف بنت جبار اقتناعاتها، والعوامل المؤثرة في ذلك.

– قراءة الكتب والمطالعة: من خلال قراءة رواية "بوابة الذكريات" سيلاحظ القارئ رؤية جبار للأسرة الجزائرية، سيلتقي مع الأنثى التي تريدها جبار، والتي حاولت الدفاع عنها موظفة الخيال بمعية الروح والقلم، ومن غير شك بناء الخيال يحتاج إلى معارف سابقة وقراءة لتجارب فائتة، وذاك ما كان فعلا، فقد كانت جبار شغوفة بالقراءة منذ الصغر؛ تصف حرصها على المطالعة مع إحدى الصديقات:" في السنة الثانية، تغير كل شيء بالنسبة إليّ بفضل لقائي بماق والكتب التي كنا نلتهمها معا خلال ساعات الدراسة...هكذا بدأت صداقتنا صداقة قارئتين شغوفتين"[21].

تؤكد جبار على بناء تفكيرها ووعيها الذاتي منذ الصغر مسمية نماذج لما كانت تقرؤه بمعية صديقتها الأوروبية، والذي كون لها رصيدا معرفيا، وجعلها تشعر بالتميز:"...صداقتنا المبنية على الكتب وضعتنا على مبعدة من الأخريات، لاسيما وأنّ الأدب لم يكن أدب كبار الكلاسيكيين فحسب، التهمنا أولا دوستويفسكي، وتولستوي، وستاندال، وبلزاك، بل الجديد الذي قلّما كان يحدثنا عنه أساتذتنا، أنّ كل أدب إنما هو حيّ ويبدع في الحاضر"[22].

لقد غيرت القراءة من قناعات جبار، جعلتها تتبنى بعض الأفكار الغربية، بل وكانت تعتبر القراءة مصدر إلهام وتحول:"...كانت مطالعة ما كنت أسميه بالكتب الحقيقية مصدر نشوة، بل مصدر تحول"[23].

تؤكد جبار أنّ الأدب كفيل بأن يبني الشخص من خلاله رؤيته ويتخذه نورا ينير دربه في الحياة، وكذلك فعلت هي من خلال طرحها الروائي:"...كان الأدب أولا شغفا بالكلمات،

ومطالعة، وبعد ذلك كتابة، كي نتشبع بنوره"[24]؛ فجبار قرأت عن الفكر الغربي، عن تحرر المرأة الغربية، عن شكل الحياة التي يرويها الروائيون والفلاسفة الغرب، فلو عدنا مثلا لبلزاك زعيم الكتابة الواقعية في فرنسا والغرب، فقد عالج مواضيع اجتماعية تصور الحياة الاجتماعية والعاطفية لامست جوهر المجتمع الأوروبي، ولا شك أنّ هؤلاء الكتاب كانوا يؤمنون بقدرة الكتابة على تغيير الوضع الاجتماعي من خلال تسليط الضوء على قضايا معينة والتركيز عليها وصفا ونقدا رغبة في التغيير، ومن ذلك نفهم أسلوب جبار في الكتابة وتأثرها الواضح بالأدب الفرنسي الواقعي منه خاصة.

– الصحبة والرفقة: ذكرت جبار أسماء صديقات لها، فرنسيات بالأخص، خاصة عند دراستها في الإعدادية، وإقامتها بالداخلية، ووصفت مقاسمتها لغرف النوم معهن، كما لم تخفِ الحوار الذي كان يدور بينهن، والذي يكون غالبا حول المغامرات العاطفية التي تقوم بها البنات، والتي كانت تعتبرها جبار في البداية وقاحة، وحرية مبالغ فيها، ثم أبدت بعد ذلك إعجابها وتأثرها بهذا النموذج الأوروبي في الحياة، ثم انتقلت إلى تجريب العلاقات العاطفية مثلما وصفت من خلال متنها الروائي.

تحدثت جبار عن صديقة لها اسمها:" ماق"، وذكرت كيف تجاوزت بسببها الخطوط الحمراء:" مع الماق المتواطئة معي، عرفت منذ سن الثالثة عشرة فلتاتي الأولى رغم خشيتي من القسوة الأبوية"[25]؛ لقد وصفت كيف كانت تجرها هذه الصديقة جرا للحرية الأوروبية وإشباع الغرائز، حتى أنها أكلت بعض الحلويات الممزوجة بالخمر:"...كانت تطالبني بأن ألبي جميع رغباتي المخفية...أخيرا خلصت إلى الاعتراف برغبتي في تذوق البابا بالروم...هكذا في سن الثالثة عشرة رحت أنتهك نواهي القرآن الكريم"[26].

ذكرت الراوية اسم صديقة فرنسية أخرى تدعى:"جاكلين" والتي كانت تقاسمها غرفة المرقد في الداخلية في مراهقتها، ذكرت الراوية الحديث الذي يدور بينها وبين جاكلين في الليل، كيف كانت تحدثها عن الحرية التي تتمتع بها، عن علاقاتها الغرامية، واستمتاعها بالعطل في شواطئ البحر، عن عدم اعتراض أفراد عائلتها على هذه العلاقات، إذ كان ذلك يجري أمام أعينهم:"...في كل مساء عند مجيء الخريف، كانت تتحدث بإطناب عن غرامياتها الأولى وهي مفعمة بالحرية التي تمتعت بها خلال عطلتها على شاطئ اليحر، كانت تسميها مداعبات...كانت تصف عالما ذا طبائع غريبة جدا تحت أنظار أمها الشابة، أو أخ متغطرس"[27].

تصف الراوية تأثرها بهذه الحرية، وإن كانت تعلم يقينا أنها ليست من ثقافتنا العربية والإسلامية، لم تخف الراوية إعجابها بما كانت ترويه جاكلين:"...صوت آخر ردّ بداخلي: أنت معجبة بجاكلين وأناقتها وحركاتها اللطيفة"[28]؛ أعجبت الراوية بجاكلين، بمظهرها وأناقتها، وحتى بمغامراتها، كما أنها لم تخبر أفراد عائلتها عن هذه الصديقة، لأنها تعلم رفضهم مثل هكذا صداقة لتأثيرها، "فالصاحب ساحب" كما يقول المثل العربي:"...أشعر بالإعجاب نحوها، هكذا نعمل على إخفاء حميميتنا واعترافاتنا في المرقد...لن أفشي أسرارها أبدا لا لأبي ولا حتى أمي"[29].

تصف الراوية بعد ذلك في فصل آخر من متنها الروائي كيف جربت ما كانت تسمعه من صديقاتها المراهقات، وتجاوزت به عتبة المحظور:"...في طريقي إلى غاية الحانة، كان مزاجي رائقا، لأول مرة أذهب للقاء طارق في انطلاقة من الحرية المذهلة...أصبحت حنة فيكتور هيجو بمقصورتها الصغيرة في الطابق الأول– الخالية في أغلب الأحيان– عشّا للعاشقين"[30].

– الرؤية والمقارنة: لقد سمحت الراوية لنفسها بتجاوز المحظور الذي ترسم حدوده الأعراف والتقاليد، وقبل ذلك تعاليم الدين الإسلامي من خلال ما كانت تراه داخل المجتمعين الجزائري والأوروبي، فقد كانت ترى البؤس والإغلاق عند المجتمع الجزائري، خاصة الذي يُمَارس على المرأة، وذلك بكثرة المحظورات والممنوعات، بينما تعيش نظيرتها الأوروبية الحرية المطلقة، إذ لا يوجد كلمة ممنوع على المرأة داخل المجتمع الأوروبي، لقد وصفت الراوية جزءا من تقاليد الغرب التي مارسها المعمرون في الجزائر، وذلك في الشارع وأمام الملأ؛ بل كان ذلك تسلية لبعض الجزائريين وهم يتلصصون على هؤلاء المعمرين الذين يمارسون حريتهم في علن:"...أنا وأمي نعيش في قرية...نكتفي في الواقع بالنظر من نوافذنا إلى الأوروبيين وهم يرقصون في الساحة، فليس لدينا تسلية أخرى"[31].

لقد تأثرت الراوية كثيرا بما كانت تراه من فروق بين المجتمعين، كانت ترى الأنثى داخل الأسرة الجزائرية تعيش البؤس والحرمان الذي فرضه الاستدمار الفرنسي، زائد القهر الذي يمارسه عليها أبناء جلدتها ومن هم أقرب الناس إليها، بينما تعيش الأنثى الأوروبية بحق كامل، وكينونة مستقلة.

تطرح جبار تساؤلا خلال متنها الروائي، وهو شعور بالهوان عند عقد المقارنة بينها وبين نظيراتها الأوروبيات:" لماذا عند ولوجي المتردد للمراهقة الهشة جدا...أحسست بأني على الهامش إلى جانب فرنسيات من سني، وهن اللواتي كنت أحاذيهن بالداخلية، لاسيما جاكلين، جارتي في المرقد؟[32].

كما أنّ الراوية عندما حاولت تقليد الأوروبيات وجدت نفورا من عامة المجتمع الجزائري الذي يمجد ثقافته، ويحترم ثقافة الآخرين دون أن يتأثر بها في تلك الفترة من تاريخ الجزائر، فقد أشارت الراوية إلى رفض المجتمع الجزائري ظهور المرأة باللباس غير المحتشم

أو خروجها بمفردها أو بدون حايك، وأن ذلك من صميم ثقافة الشعب الجزائري وهويته الإسلامية، بل وكان يصف من تفعل ذلك بالفجور:"... "ولحسن الحظ أنك استوعبت هذه الحقيقة توا، هؤلاء الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنين وسبعين سنة يحترمونك... لأنهم يعتقدون أنك أجنبية...ولكن أن يعرفوا بأنك من ذويهم ومتحررة، فهذا غير معقول في نظرهم"[33].

بل وصل الأمر بالراوية إلى إخفائها اللغة العربية في الخارج إذا أرادت أن تمشي في لباس الحرية كما تزعم، والذي يراه بنوا جلدتها سفورا: "في الشارع بينما يمكنني ترك جسدي يتسكع حرا طليقا، يجب علي التزام الصمت أو التحدث بالفرنسية... ولكن يجب علي أن لا أظهر هذه اللغة الأولى أمام الملأ، لغة العديد من النساء اللواتي لا يزلن سجينات... أريد أن أخرج عارية كما يقولون... غير أني لا أستطيع أن أتمتع بهذا الفسق إلا إذا أخفيت لغة الرضاعة"[34].

فتأثر الراوية من خلال ما كانت تراه واضح، جعلها ترفض وضع الأنثى الجزائرية، وتقلد الأنثى الغربية قلبا وقالبا، بل وتدعو إلى هذا التقليد الذي تبنته، واعتبرته نهجا في الدفاع عن حرية المرأة الجزائرية.

" وبالتالي، لم يكن بمقدور أي كاتبة أن تتحدث عن قهر المرأة وهي تعاني قهرا استعماريا وتعيه جيدا، إلا أننا لاحظنا أنّ أسيا جبار في بعض رواياتها انساقت دون وعي منها خلف بعض الصور النمطية التي يحبذ المستعمر وسم مجتمعنا بها، وخاصة ما يمس العلاقة بين الجنسين والأسرة والمجتمع، ففي بعض رواياتها تتحدث عن قمع المرأة الجزائرية من قبل العادات والتقاليد وهذه حقيقة لا مفر منها، لكن لو تأملت المشهد جيدا لاستطاعت أن تفهم أسلوب المستعمر الذي كانت له يد كبيرة طالت تغيير الذهنيات وخاصة ما تعلق

منها بممارسات المرأة فمحاولة إبراز دونية التعامل مع المرأة العربية في مجتمعاتها تبعها مباشرة مناداة بتحرير المرأة العربية"[35].

فتناول جبار لموضوع الأسرة، لحال الأنثى الجزائرية مبني على قناعات بنتها من الواقع المعيش، من رؤية الآخر والقراءة عنه، ومن تم المقارنة والرغبة في التقليد.

4. خاتمة:

عملت آسيا جبار على نقل وقائع وأحداث تعيشها الأسر الجزائرية، صورت شكل المعاناة التي تعايشها الأنثى في الجزائر، أسمعت صوت المرأة الجزائرية التي تعيش في عمق الجزائر، كانت جبار أمينة في وصف الواقع الأسري الجزائري بمحلية خاصة وخالصة تمثل الجزائر من الداخل، كما أشارت لشكل العلاقة الأسرية، لطريقة عيشها رغم الظروف الصعبة زمن الاستعمار الفرنسي، لم تنس الحديث عن علاقة الأنثى بالرجل، والذي كان يعد من المنوعات، كان بوحها في علن من خلال الدعوة للتمرد على هذه الأعراف التي تحد من دور المرأة في المجتمع، تحجم كينونتها، تجعلها تابعة للرجل في كل قراراتها.

جبار لسان جزائري تبنى أفكارا غربية تمجد الحرية المطلقة للمرأة، اتخذت من الرواية ملاذا للبوح، وفضاء حرا لبسط الأفكار والرؤى، رغبة في تحقيق الذات، في بناء المكان الخاص الذي طالما كانت فيه تابعة للرجل.

وتبقى روايتها:" بوابة الذكريات" عملا فنيا يرقى للبحث الأدبي والنقدي، ويساعد في فهم الأسرة الجزائرية، يساعد على التعرف إلى الأعراف الجزائرية، يجعل المتلقي يتعرف إلى الجزائر من العمق وبعمق.

5. قائمة المراجع:

[1]– عبد الحميد بن هدوقة: ريح الجنوب (رواية)، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2012، ص257.

[2]– المصدر نفسه، ص282.

[3]– فضيلة فاروق: مزاج مراهقة (رواية)، لبنان، دار الفرابي، ط2، 2007، ص12.

[4]– المصدر نفسه، ص15.

[5]– المصدر نفسه، ص16.

[6]– آسيا جبار: بوابة الذكريات (رواية)، ترجمة: محمد يحياتن، الجزائر- سيديا ، 2014، ص14.

[7]– المصدر نفسه، ص182.

[8]– المصدر نفسه، ص198.

[9]– المصدر نفسه، ص495.

[10]– المصدر نفسه، ص65.

[11]– سمراء جبايلي: حركية الجسد وإمكانية تأثيث نص سردي نسوي(بوابة الذكريات لآسيا جبار أنموذجا)، مجلة الميدان للعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر/ جامعة باتنة، المجلد04، العدد01، 2021،ص 174.

[12]– آسيا جبار: بوابة الذكريات، ص98.

[13]– المصدر نفسه، ص99.

[14]– المصدر نفسه، ص338.

[15]– المصدر نفسه، ص496.

[16]– المصدر نفسه، ص496.

[17]– المصدر نفسه، ص489.

[18]– المصدر نفسه، ص497.

[19]– المصدر نفسه، ص388.

[20]– المصدر نفسه، ص388–389.

[21]– المصدر نفسه، ص169–170.

[22]– المصدر نفسه، ص171–172.

[23]– المصدر نفسه، ص172.

[24]– المصدر نفسه، ص177.

[25]– المصدر نفسه، ص178.

[26]– المصدر نفسه، ص180.

[27]– المصدر نفسه، ص228

[28]– المصدر نفسه، ص230.

[29]– المصدر نفسه، ص232.

[30]– المصدر نفسه، ص432.

[31]– المصدر نفسه، ص224.

[32]– المصدر نفسه، ص228.

[33]– المصدر نفسه، ص398.

[34]– المصدر نفسه، ص400.

[35]– حياة أم السعد: انبثاق الوعي بالآخرية وحدود المقاومة–مقاربات ما بعد النسوية في أعمال آسيا جبار ورضوى عاشور، مجلة اللغة العربية، جامعة الجزائر، ع37، 2017، ص318–319.